المقتطف

الجزء الخامس من السنة الرابعة عشرة

اشباط (فبراير) سنة ١٨٩٠ الموافق ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧

حب الوطن

الناس رجلان رجل لا يسعى الاَّ لنفسهِ ولا يهتم الاَّ بشأنهِ كأنهُ خُلق وحيدًا وخلقت الدنيا لهُ . ويُطلَق على هذا الخُلق حب الذات او الانانيَّة نسبة الى لفظة انا . ورجل يسعى لغيرهِ كما يسعى لنفسهِ بل يسعى للجمهور حاسبًا نفسهُ واحدًا منهم . ويُطلَق على هذا الخلق حب الغير او الغيرية نسبة الى لفظة غير . وحب الوطن نوع من الانانيَّة او حبّ الذات كما سيجيء

وقد كانت الانانيَّة ضرورية لمَّا كان الانسان في حال الفطرة منفردًا الى ان يذود عن نفسهِ بيدَيْهِ فقويَتْ فيهِ الاثرة وبها تغلَّب القوي على الضعيف فارتقى نوع الانسان ببقاء الاقوى منهُ ولم يزل ذلك ناموسًا شاملاً لطوائف الحيوان والنبات فلا يجاور القويُّ الضعيفَ حتَّى يأكلهُ او يميتهُ او يأكل الخيرَ من امامهِ . اما الانسان فقد ارتقى في الممالك المتمدنة والقبائل المنتظمة عن هذه الحالة وصار جميع افرادهِ كاعضاء جسم واحد هو جسم العمران وصارت الغيريَّة انفع لهُ من الانانيَّة لجلب النفع العام لان ما ينفع زيدًا اذا كان مستقلاً ينفع عمرًا ايضًا اذا كان مشتركًا معهُ ولا يقصُرُ عن نفع زيد بشيء فيتكرَّر نفع المنافع كلها باشتراك كثيرين فيها ويظهر ذلك باوضح بيان في امر البريد فعوضًا عن ان يرسل كل واحد من تجار القاهرة مكاتيبهُ مع رسول مخصوص الى الاسكندرية مثلاً ويدفع كلٌّ منهم اجرة الرسول كلها يشتركون جميعًا ويرسلون رسولاً واحدًا ولا يدفع كلٌّ منهم الاَّ جزءًا من اجرتهِ وتقل نفقاتهم اكثر من ذلك اذا اتفقوا هم وكل اهالي القطر على اقامة ادارة خاصَّة للبريد تتكفَّل بارسال الرسائل الى كل جهة

فتقلُّ النفقات كثيرًا بازدياد عدد المعتمدين على هذه الادارة ويتنفع منها كل احدٍ منهم كما لو كانت خاصة بهِ

وهذا شأن الجرائد ايضًا فانهُ لو تكلَّف احد استحضار الاخبار السياسيَّة والتجارية من اقطار المسكونة لما تيسَّر لهُ ذلك ولو دفع كل يوم قناطير مقنطرةً من الذهب الوضَّاح ولكنَّ نظام الجرائد الحالي يقوم بذلك كلهِ فيجلب المحرِّر اخبار المسكونة من اقاصي الهند والصين واليابان شرقًا الى اقاصي اميركا غربًا ويطبعها طبعًا بحرف جميل على ورق متين ولا يكلفك الاَّ غرشًا واحدًا او نصف غرش في اليوم

هذه فائدة الغيرية التي جعلت قوة الانسان الواحد بمثابة قوى جميع الناس المشتركين معهُ . والمتبصِّر في الامر يرى ان الغرش الذي دفعهُ ثمن الجريدة اليوميَّة قد استخدم الوفًا والوف الالوف من الكتَّاب والمحررين وخدَمة البريد والتلغراف بل والعلماء ورجال السياسة ومستخرجي المعادن وسابكي الحروف وجامعيها وصانعي المطابع والاحبار والورق الى غير ذلك مما يطول شرحهُ . فانت ترى بعد هذا البيان الوجيز فضل الغيرية على الانانيَّة اي فضل السعي المشترك على السعي المستقلّ لان الثاني يحصر قوة الانسان بما يجلبهُ لنفسهِ من النفع ويدفعهُ عنها من الضرّ واما الاول فيجعل الانسان يخدم بسعيهِ كل بني جنسهِ ويستعين بهم على خدمتهِ . ومع ذلك فالانانيَّة كانت لازمة والانسان في حال الفطرة ولم تزل لازمة لهُ في احوال كثيرة حيث لا بدَّ من السعي الخاص

ومحبَّة الوطن نوع من الانانيَّة وهي لازمة لارتقاء كل امَّة على حدتها كما ان الانانيَّة كانت لازمة لارتقاء كل فرد من افراد البشر ولكنها لا تغني عن توسيع نطاق المحبَّة حتَّى تشمل سائر الاوطان

وقد قيل حبُّكَ الشيَّ يعمي ويصم وهذا ظاهر على اوضحهِ في حب الذات وحب الوطن فالذي يحب ذاتهُ يعمى عن معايبها ويعدُّ سيئاتها حسنات والذي يحب وطنهُ تولاَّهُ هذه الخلَّة ايضًا فيفضلهُ على سائر الاوطان ويراهُ جنَّة الدنيا ويتغزل بمدحهِ نثرًا ونظمًا كما قالهُ بعضهم في هذا المعنى

وأربع احبابٍ اذا ما ذكرتها ... بكيتُ وقد يُبكيكَ ما انتَ ذاكرُ
بطاحٌ وادواحٌ يروقكَ حسنها ... بكل خليجٍ نمَّنهُ الازاهرُ
فما هو الاَّ فضَّة في زبرجدٍ ... تساقط منهُ اللؤلؤُ المتناثرُ
بجيث الصبا والتُّربُ والماء والحلا ... عبيرٌ وكافورٌ وراحٌ وعاطرُ

وما جنّةُ الدنيا سوى ما ذكرتهُ وما ضمّ منهُ الحسنَ نجدٌ وحاجرُ
بلادي التي اهلي بها واحبتي وقلبي وروحي والمُنى والخواطرُ
تذكّرني انجادُها ووهادُها عهودًا مضتْ لي وَفْيَ خُضْرٌ نواضرُ
سلامٌ على تلك العهود فانّها مواردُ افراحٍ تَلَتْها مصادرُ

ولكنّ الفرق كبير بين محبّة الذات ومحبّة الوطن في اعتبار الجمهور فالذي يتطرّف في محبّة ذاتهِ يلام من الجميع واما الذي يتطرّف في محبّة وطنهِ فيمدح اشد المدح من مواطنيهِ وغيرهم . والذي يضحي مصلحتهُ الخصوصيّة لاجل المصلحة العموميّة يمدح اشد المدح واما الذي يضحي مصلحة وطنهِ الخصوصيّة لاجل مصلحة نوع الانسان العموميّة فيلام اشد اللوم . والذي يرى عيوب نفسهِ ويعترف بها يُمدَح ويقرّب واما الذي يرى عيوب وطنهِ ويعترف بها فيلام ويُقصى . ولذلك ترى حب الوطن على اشدّهِ بين الامم المستعزّة بنفسها المستقلّة عمّا سواها كالامّة الفرنسوية والانكليزية والالمانيّة وقد طوّح بها حب الوطن حتّى صارت لا ترى الاّ عيوب غيرها ولا ترى حسنات الاّ لنفسها . فالانكليز مثلاً يلومون الفرنسويين لانهم قتلوا العرب في بلاد الجزائر واضرموا النار على افواه الكهوف التي لجأوا اليها لكي يميتوهم خنقًا وقد نسوا انهم فعلوا مثل ذلك بالعصاة من جنود الهند فجمعوهم في صف واحد واطلقوا عليهم الرصاص دفعة واحدة ثم جمعوهم بعضهم فوق بعض واضرموا فيهم النار حتّى لا يبقى منهم حيٌّ

ولو اقتصر حبُّ الوطن على طلب الخير لهُ ودفع الضير عنهُ لكان فرضًا واجبًا على كل احد ولو قصّر في نفعهِ عن توسيع نطاق الحب الوطني وجعلهِ شاملاً لجميع الاوطان . ولكنهُ لا يقتصر على ذلك بل كثيرًا ما يعوّج الاحكام ويبعد عن جادّة الحق حتّى في الامور العلميّة التي لا تراعي وطنًا دون آخر مثال ذلك ان ورتز الكيماوي الفرنسوي الشهير من اعرف الناس بفن الكيمياء وفضل الكيماويين الانكليز والالمان ولكنهُ يقول في مقدمة كتابهِ المعروف بتاريخ الآراء الكيماوية «ان الكيمياء علم فرنسوي» نافيًا كل فضل فيها عن كل احد غير الفرنسويين . وما من احد من اهالي اوربا ينكر ان شكسبير الشاعر الانكليزي من اشعر شعراء الارض ان لم يكن اشعرهم ولكن احد المصورين الفرنسويين صوّر الشعراء كلهم يتوجون هوميروس الشاعر اليوناني وفي مقدمتهم كل الشعراء الفرنسويين وصوّر جزءًا من شكسبير في زاوية الصورة . والذي كتب اسماء العلماء والعظماء على جدران قصر الصناعة بباريس ذكر كثيرين من العلماء الفرنسويين الذين قلما

يعرّف اسمهم واغفل اسم الفيلسوف نيوتن وهو اشهر علماء الارض . والذي يقرأ وصف فكتور هوغو لفرنسا يحسب انها وحدها مصدر كل تمدن ومعرفة وانها هي التي انقذت بني البشر من الخراب والهلاك . وقد بلغت محبّة الوطن من الفرنسويين مبلغًا جعلهم يحتقرون كل من سواهم فلما اقدموا على الحرب الجرمانيّة رسموا الخُرط لبلاد جرمانيا ولم يرسموا خرطًا لبلادهم ادعاء منهم ان ميدان الحرب لا يكون الاّ في جرمانيا فانقلب الامر عليهم وكان من نتيجتهِ ما كان

والالمان ليسوا اقل اثرةً وحبًّا لوطنهم من الفرنسويين فلا تسمع في بلادهم غير اسم العلم الجرماني والفلسفة الجرمانيّة والامبراطورية الجرمانيّة . وعندهم ان الفرنسويين ليسوا شيئًا يذكر بل ان الايطاليان ارقى من الفرنسويين لانهم يدرسون الفلسفة الجرمانيّة

وجملة القول ان التطرُّف في حب الوطن يجعل الانسان يرى سيئات وطنهِ حسنات وحسنات غيرهِ سيئات . وانهُ اذا كان التطرُّف في حب الوطن مضرٌّ بعض الضرر الادبي فاهمال حب الوطن وتفضيل بقيّة الاوطان عليهِ مضرٌّ ضررًا اديبًا ومادّيًا لانهُ يضعف الهمم ويثبط العزائم . ولا يندر ان ترى تطرُّف الناس ولاسيّما الكتّاب في هاتين الجهتين فاما ان يعظّموا كل شيء وطني ويحقّروا كل شيء اجنبي واما ان ينادوا بخراب اوطانهم ويعتدوا عليها ماتم النواح ويبوّقوا بفضائل الاوطان الاخرى ويتركوا جنسيتهم ويلجأوا الى جنسيّة غريبة . والحكيم من اقتصد بين الطرفين فلم يبالغ في مدح غيرهِ وذم نفسهِ ولا غالى في مدح وطنهِ وذمّ غيرهِ بل ازاح عن عينيهِ حجاب الغرض وسعى لنفسهِ وغيرهِ ولوطنهِ وسائر الاوطان وحسب الناس كلهم اخوةً والدنيا كلها وطنًا واحدًا ورقّى نفسهُ ووطنهُ لكي يرتقي البشر كلهم بارتقائهما

قوس قزح

لم ينتصف الشهر الاول من هذا العام حتّى برد الهواء واكفهرّ وجه السماء وسحّت السحب غيثًا مدرارًا اترع الشوارع فصارت انهارًا . وقبل ان آذنت الشمس بالمغيب بزغت اشعتها من خلال السحاب فحدثتنا النفس برؤية قوس قزح فخرجنا الى شرفة الدار واذا بالقوس منصوبة الى الشمال الشرقي منا تامّة الاستدارة بديعة الالوان تذكّرنا بلادًا نشرب ماء السماء وتثقل بحب الغمام ولا يمرُّ يوم من ايام الشتاء الاّ وترى القوس فيها موتورة فوق البطاح والآكام